على طريق الأصالة

(٥)

اللغة العربية
في مواجهة اللغات الأجنبية

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة العربية فى مواجهة اللغات الأجنبية

أرجو أن أتناول هذا الموضوع الخطير من وجهة نظر باحث إسلامى يؤمن بإقامة منهج جامع للفكر الإسلامى ومن خلال إيمان صادق بأن اللغة العربية مستهدفة من جهة القرآن والوحدة الإسلامية وفى الحق أن كلمة (المواجهة) كلمة رقيقة لا تمثل حقيقة الصدام الذى وقع فعلا بين العربية واللغات الأجنبية .

• • •

لقد بدأت (المواجهة) بين اللغة العربية وبين اللغات الأجنبية منذ اليوم الأول لدخول النفوذ الأجنبي إلى قلب الأمة الإسلامية ، وكان تركيز التغريب والغزو الثقافى على اللغة العربية بالغ الدقة من حيث أنه المفتاح لكل حرب توجه نحو العقيدة أو الفكر أو التراث أو التاريخ أو القرآن نفسه فقد كان دعاة التغريب فى مخططاتهم يعرفون مدى إرتباط اللغة العربية الفصحى بانتشار الدعوة الإسلامية ومدى إرتباط جماعة المسلمين (خارج نطاق البلاد العربية) باللغة العربية بوصفها لغة عقيدة وفكر وثقافة ، يجب أن تكون تالية للغة البلاد

الأولى ، بل لقد كانت لغات الترك والفرس والملايو والأوردو تكتب جميعها بالحروف العربية .

ولقد كان تركيز النفوذ الأجنبي على اللغة العربية هو بمثابة الحرب على القرآن الكريم نفسه فإنه إذا نزلت اللغة إلى مستوى فى البيان هابط واستمرت على ذلك التنازل جاء اليوم الذى يبدو بيان القرآن وكأنه مختلف وغامض لإرتفاعه عن مستوى اللغة العامة وعند ذلك ينفصل القرآن عن لغة الكتابة ويقرأ بقاموس ويتحقق هدف النفوذ الأجنبى بعزل اللغة العربية لا قدر الله .

إن من يراجع الوثائق التى بدأت بها عملية الاحتلال البريطانى لمصر تكشف إن أول أعمال الإحتلال هى وضع الخطة لحطم اللغة ، يبدو ذلك واضحاً فى تقرير (لورد دوفرين عام ١٨٨٢ حين قال : إن أمل التقدم ضعيف (فى مصر) طالما إن العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية - لغة القرآن - كما فى الوقت الحاضر) .

وحين تحدثت التقارير عن الأزهر وضرورة تطويره تبين المخطط التغريبى كاملا فقد كان القرآن والإسلام هما الهدف ، وقد توالت هذه الحرب . ليس فى مصر وحدها بل فى الشام والمغرب بأقطاره كلها فى محاولات قدمها كرومر وبلنت من ناحية ولويس ماسنيون وكولان فى المغرب ، ثم تقدم رجال يحملون أسماء عربية بعد أن مهد لهم الطريق ويلكوكس ، والقاضى ديلمور ، تقدموا للعمل وحيل

بين اللغة العربية وبين أحكام المحاكم المختلطة والأجنبية.

وكان التعليم فى البلاد العربية المحتلة يتم كله باللغات الأجنبية (الإنجليزية فى مصر والسودان والعراق) والفرنسية فى (سوريا وتونس والجزائر والمغرب) فقد كانت خطة النفوذ الأجنبي ترمى إلى:

أولا: تقديم اللغات الأجنبية فى الأقطار الإسلامية على اللغة العربية.

ثانياً: تقديم اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية.

ثالثاً: إبتعاث أبناء المسلمين إلى الغرب لدراسة لغاته وكان ذلك إيماناً بأن اللغة هى الوجه الثانى للفكر وأن من يجيد لغة أمة لابد أن يعجب بتاريخها وفكرها ويصير له إنتماء من نوع ما إلى هذه الأمة وكانت الحملة على اللغة العربية الفصحى من خلال حجج ضعيفة واهية منها: صعوبة اللغة، ومنها التفاوت بينها وبين العامية.

وانطلقت فى ظل هذا التيار التغريبي الشديد الخطورة: تلك الكلمة المسمومة التى تقول: إن اللغة العربية لغتنا وهى ملك لنا ومن حقنا أن نتصرف فيها وكيف يحق لنا (حتى لو كنا كل

العرب) أن نتصرف فى لغة الثقافة والعقيدة والإيمان لآلاف مليون من المسلمين .

لقد رافق التنافس بين اللغتين الإنجليزية والفرنسية على أفق الثقافة الإسلامية مخطط خطير كان يعمل على بث الثقافة الغربية وحجب مفاهيم الفكر الإسلامى من خلال النفوذ الإستعمارى الذى فرض على التعليم لغته ومناهجه وعلومه التى تختلف إختلافا بينا عن علوم الإسلام ســـــواء فى مجال التربية أو النفس أو الأخلاق أو الاجتماع .

ومن ثم برزت أجيال من المثقفين لهم طابع غربى ينظرون فى تقدير عجيب للغرب وتاريخه وأعلامه ويزدرون تاريخ أمتهم وقيم فكرهم وهم لم يقرأوه إلا عن الإستشراق والتبشير وكان فرض اللغات الأجنبية فى مختلف أقطار الأمة الإسلامية عاملا هاماً فى فرض ثقافاتها ووجهة نظر أهلها وفى الوقوف موقف الإعجاب بالغاصب والعجز عن مواجهته .

ومن يدرس تجارب التعليم الغربى فى البلاد العربية (وهو غير التعليم التبشيرى) تجد الولاء الواضح للنفوذ الغربى ، بينما إنحسرت الثقافة الإسلامية فى الأزهر والزيتونة والقرويين وخلاوى تحفيظ القرآن دون أن يكون لأصحابها أثر واضح فى حركة الحياة الاجتماعية ورغبة فى عزلهم عن التوجيه ، ولم يخل الأمر من محاولات تطوير هذه

المعاهد على نحو يفرغها من رصيدها الإسلامى القائم على الأصالة والحفاظ على الذاتية الإسلامية من الانصهار أو الذوبان فى بوتقة الحضارة الغربية .

ومن خلال هذه التبعية الثقافية للغات الغربية كان الأثر البعيد فى تبنى مناهج الغرب فى دراسة اللغة العربية والقرآن وتاريخ الإسلام وفق مناهج التفسير المادى للتاريخ وهى مناهج لا تعترف بالوحى أو النبوة أو الغيب وقد قامت على دراسات كان لها شهرتها البعيدة ولكن اليقظة الإسلامية إستطاعت أن تكشف قصورها وعجزها عن العطاء الأصيل .

أن من يتابع إقتحام اللغات الأجنبية اللغة العربية فى مهدها وأوضها ليجد صورة مريرة حيث يتعقب النفوذ الأجنبى اللغة العربية الفصحى فى إصرار وموالاة ويطاردها حتى لايدعها تلتقط أنفاسها، وهو حين يطاردها يحس بالانتقام من شيء أبعد من اللغة العربية : من القرآن الكريم ونفوذ الإسلام الذى يتنامى فى المناطق التى بدأ يسيطر عليها .

فى إفريقيا حيث تعمل البعثات التبشيرية من أجل معارضة نمو الإسلام يوجه إلى اللغة العربية أكبر قدر من المقاومة والحرب فقد كانت لغة العرب لها السيادة فى مختلف أقطار إفريقيا قبل أن يعمد

الاستعمار إلى زحزحتها عن مكانها وإعلاء لغاته الغربية ولهجات إفريقيا الساذجة ، فقد جعل الإستعمار اللغة العربية كبرى فرائسه حتى فصل بين نمو الإسلام وإمتداده وبين لغة القرآن الكريم ، لقد كان للغة العربية الحظ الأوفى فى الانبثاث فى اللهجات الصـــومالية والزنجبارية أولا : لرجوع الصلة بين شرق إفريقيا وجزيرة العرب إلى أقدم عصور التاريخ وهو ما يتبين مثلا من وجود كلمة (ياريهو) منقوشة على جدران الدير البحرى بطيبة .

والسبب الثانى لتغلغل اللغة العربية فى اللهجات الصـــومالية والزنجباوية يرجع إلى أن أهل الصومال وزنجبار كانوا على أثر شيوع الإسلام بينهم فى عهد بنى أمية وهجرة الزيديين إلى تلك الأصقاع فى حاجة إلى تفهم معانى القرآن والأحاديث وأقوال الأئمة على أن رطانتهم بلهجاتهم تلك ظلت على الرغم من توفرهم على درس اللغة العربية غالبة على ألسنتهم فنشأ بينهم لجمعهم بينها وبين اللغة العربية لحن جديد عرف فى شمال خط الإستواء باللغة الصومالية وفى جنوبه باللغة السواحلية وصارت كلتاهما من ناحية ثانية اللغة العربية فيها مزيجاً من كلمات زنجية بحتة .

وقد طرأ التشويه والتحريف على اللغة السواحلية باستيلاء البرتغاليين على حوض المحيط الهادى وسواحل شرق إفريقيا ، وقد عمد الاستعمار إلى إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة السواحلية فى زنجبار وكينيا وتنجانيقا وأوغندا ، وكذلك محل اللغة العربية أيضاً.

وقد أشار باحثون كثيرون إلى عمق الخطة التى اصطنعها الاستعمار الفرنسى فى المناطق التى احتلها من أفريقيا فقد كان يحاول أن يبث فى عقول الأطفال أنهم من الغال الفرنسى فيقول (ألبير بتفود) لقد ضحكنا كثيراً عندما كنا نسمع ونحن أطفال أن أجدادنا غالبون ، وقد فرضت فرنسا على الطلاب أن يعتبروا الفرنسية لغتهم القومية ، أما فى ساحل العاج فقد كان الأوامر تقضى بمنع التلاميذ من استعمال لغتهم الأم منعاً باتاً بينما كانوا لا يفهمون كلمة واحدة من الفرنسية ، وكانت تفرض العقوبات على المتمردين الذين لايستطيعون أن ينصهروا فى البوتقة ، وفى نيجيريا كان الإنجليز قد حالوا بين المسلمين والتعليم وكانوا يشترطون أن يغيّر المسلم إسمه إلى إسم لاتينى ويحضر الصلوات فى الكنيسة ويدرس التاريخ الأستعمارى كما عمدوا إلى نقل حروف اللغات المحلية من العربية إلى الحروف اللاتينية فضلا عن عملية القضاء على كتب التراث الإسلامى التى تعرضت للحريق للقضاء على كل أثر علمى عربى بعد قطع التيار الحضارى العربى القادم من شمال أفريقيا ومصر .

وفى غرب أفريقيا عمد الاستعمار الفرنسى إلى القضاء على العربية بعد معركة مع اللغة العربية فى الجزائر خلال مائة عام كاملة .

وقد جاء هذا كله بعد أن بلغت اللغة العربية كل وصف حتى أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة كما أشار إلى ذلك (توماس أرنولد) فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » ، وبعد أن كانت بعوث أفريقيا ترسل إلى مكة المكرمة والأزهر أصبحت ترسل إلى الغرب .

وبعد أن كانت اللغة العربية قد شاركت بحروفها وألفاظها فى كل اللغات الأساسية فى أفريقيا وهى الهوسا والماندنجو والوولوف والسواحلية والصومالية ولغات النيجيرو الدنا كل فى أثيوبيا وأرتيرية عمد النفوذ الأجنبي إلى إيقاف كل ذلك وإحياء الثقافات الإفريقية القديمة وصبغها بصبغة قبلية إقليمية تساعد على إثارة التعصب وإقامة القوميات المحدودة المحلية فى نطاق قبلى ليستغلوا هذه الروح فى إقامة سد مرتفع فى وجه انتشار اللغة العربية مع نشر الثقافة الإنجليزية والفرنسية من خلال اللغتين ليتحقق الاستعمار الثقافى الكامل .

وهكذا أصبحت اللغتين الإنجليزية والفرنسية - كل فى المنطقة المسيطرة - لغة أساسية فى كل مراحل التعليم المختلفة وغلبت اللهجات القومية ولغة المستعمر - ليس على مناهج التعليم فحسب بل على أعمال المصارف والمحاكم والدواوين .

وقد أشار إلى ذلك المبشر زويمر حين قال : يوجد فى إفريقيا لسانان لهما النصيب الأوفر فى ميدان الاستعمار المادى وفى مجال الدعوة إلى الله وهما الإنجليزى والعربى وهما الآن فى مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع القوة والمال ويريد أن يلتهم كل منهما الآخر ، وهما المعضدان للقوتين المتنافستين فى طلب السيادة على العالم البشرى : أعنى النصرانية والإسلام .

وفى هذه الجولة استطاعت اللغات الأجنبية كسب قصب

السبق ولكن ليست هذه هي نهاية المباراة .

وفي جنوب شرق آسيا (في الملايو وأندونيسيا وتايلاند وغيرها) لا تختلف الصورة كثيراً عن هذا النموذج الإفريقي ، حيث استطاعت اللغات الأجنبية السيطرة وتراجعت اللغة العربية ثم تراجعت الحروف العربية أيضاً في تركيا وأندونيسيا .

لقد تنامى أمر اللغة الإنجليزية في العقود الأخيرة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة لتوسع نفوذ الغرب واللغة الإنجليزية الأمريكية في مناطق الإسلام على النحو الذي حجب اللغة العربية عن مناطق كثيرة وأعجز المسلمين في أفريقيا وجنوب شرق آسيا من التزود بالتراث الإسلامي أو الوصول إلى تصور لمفهوم الإسلام الصحيح نتيجة تغلب الثقافات الغربية ، وسعى التبشير السعي الحثيث في كلا المنطقتين لتوزيع الكتاب المقدس ودراسات الغرب التي تقوم على أساس دقيق من الفكر المسيحي .

وبالجملة فقد طاردت اللغتين الفرنسية والإنجليزية لغتنا العربية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وانتشرتا على حسابها فقد كان من الطبيعي حسب سنة التطور أن تسير اللغة العربية في ركاب الإسلام أينما حل ، ولكن النفوذ الأجنبي خلال أكثر من قرنين من الزمان استطاع أن يوقف نمو اللغة العربية في بلادها وامتدادها في البلاد التي انتشر فيها الإســـلام ، بل إنه عمد إلى لغاتها التي كانت تكتب

بالحروف العربية فغيرها إلى الحروف اللاتينية ، ومن ثم فقد أحس المسلمون فى هذه البلاد ولا يزالون بنقص كبير من حيث أنهم يتلقون الإسلام دون أن يتيسر لهم من أسباب اللغة العربية ما يعينهم على فهم القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وفى أندونيسيا وأرخبيل الملايو تجد الصورة قائمة فقد تعرضت أندونيسيا بعـــد الاستقلال للتحديات فى مجال اللغة فكتبت اللغة الأندونيسية بالخط الرومانى بدلا من الخط العربى المحلى وقد فرضت لغة جديدة بخط جديد حتى صارت اللغة الأندونيسية بالخط الرومانى وأصبحت العربية لغة أجنبية لا يقرءون ولا يكتبون بها رغم توجه أكبر عدد من الأندونيسيين إلى المدارس والجامعات فى الخارج ، وأصبح العدد الأكبر قادراً على أن يقرأ اللغات الغربية وخاصة الإنجليزية ، أى اللغة الأندونيسية الجديدة فقد صيغت فى قالب الثقافة الغربية ، على حد تعبير السيدة مريم جميله التى تقول : إن الصحف لا تنقل المصطلحات والكلمات الإنجليزية وحدها وإنما يتعدى تأثيرها إلى المجلات الإسلامية الدينية التى تكافح للاحتفاظ بحرية العقيدة ولكنها لا تستطيع ولا تقدر أن تكافح الاتجاه اللغوى .

ويدرك الشباب المسلم فى أندونيسيا بأن هذا التغريب اللغوى يجعل المسلمين فى أندونيسيا منعزلين لغوياً عن الدول الإسلامية الأخرى .

« إيقاف اللغة العربية »

هذا عنوان المخطط ، ولقد جاء هذا الإيقاف عن طريق القسر والتحدى وبفعل عوامل غير طبيعية أقامت السدود أمام نمو اللغة العربية وسيرها مع الإسلام فى خط واحد ، وخاصة فى المناطق التى اتسع فيها نطاق الإسلام من قبل ، ولولا هذه المحاولات التى تقودها قوى التبشير العالمية والتى تفرض على مناهج التعليم فى تلك البلاد لغات أجنبية ولهجات عامية لمااستطاعت قوة أن تحول بين العربية الفصحى ومسايرة الإسلام لأنها اللغة التى تحمل القرآن الكريم دستورالإسلام ومنهجه الاجتماعى والفكرى وتحمل السنة والفقه والتراث .

واليوم وفى كثير من البلاد التى تحررت من نفوذ الاستعمار لايزال النفوذ الفكرى يزين لأهلها ويغريها بمدارس تقوم دراستها وبرامجها على اللغات الأجنبية ، فضلا عن المدارس الجديدة التى يسمونها مدارس اللغات ، وكذلك الأمر فى معاهد الألسن التى لاتقوم برامجها على اعتباراللغة العربية هى الأساس ، فالمفروض أن تكون كل اللغات التى يتعلمها العربى أو المسلم خادمة للفكر الإسلامى ، وإنما تقوم معاهد الألسن على فلسفة مغرقة فى التبعية والولاء الأجنبى ويطمع المشتركون فيها أن تحتضنهم الدول الأجنبية فى مناصب وأوضاع متميزة يحترمون فيها خصوم أمتهم ، ولا يفوتنا أن نثنى على الجهود التى يقوم بها أهل الفكر فى بناء المدارس الإسلامية والعربية فى كل

بلاد العرب والإسلام لحماية النشء من أخطار مناهج التبشير والتغريب .

ولكن هل توقف المسلمون والعرب عن المقاومة !

الحق أنهم لم يتوقفوا وما زالوا يجاهدون ويقاومون ما وسعهم الجهد والمقاومة ، فما تزال البعثات التى ترد إلى الأزهر الشريف والعواصم العربية تعود وقد أعدت لحمل لواء البيان العربى وتدريس المواد الإسلامية ، وتنقية اللسان القومى من العجمة والاقتراب من الأصالة على نحو واسع لا تقطعه إلا مؤامرات النفوذ الأجنبي التى لا تكف المحاولة دون بلوغ الغاية .

. . .

بقى بعد ذلك أن نعرض للشبهات التى طرحت فى أفق اللغة العربية من أجل خلق روح الكراهية لها بين أهلها وهى شبهات تصدى لها الكثيرون وكشف بغيها الأبرار من ذوى الغيرة والإخلاص .

(أولا) إن تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية ، هى دعوة صريبة ترمى إلى التحلل من القوانين والأصول التى صانت الفصحى خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد فإذا تحللنا من هذه القوانين والأصول التى صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة كان نتيجة ذلك تبلبل الألسنة واتساع رقعة الاختلاف بين الأقطار العربية حتى تصبح

عربية الغد شيئاً يختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الأول أو عربية اليوم وتصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربي الإسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسي الآثار ومفسري الطلاسم.

وقد كان تطور اللغات الاوربية نكبة على أصحابه قطعهم أمماً بعد أن كانوا أمة واحدة فما زالوا في خلاف وحروب ثم إنه لم يحكم على تراثهم القديم المشترك وحده بالموت بل هو لايزال يقضي بين الحين والحين على التراث القومي لكل شعب من هذه الشعوب بالموت حتى ما يستطيع الإنجليزي اليوم من عامة الشعب أن يفهم لغة شكسبير الذي مات في القرن السابع عشر ، أما نحن العرب فإننا نقرأ القرآن ونفهم رسائل الجاحظ فلا نكاد نحس فارقاً بين أسلوبه وأسلوب المعاصرين .

(ثانياً) هناك معركة العامية التي دعا إليها بعض الشعوبيين في إحدى البلاد العربية بقصد القضاء على وحدة الأمة تحت لواء الفصحى وهي الدعوة التي أفرزت شعر التفعيل ، ونظرية الحداثة وإسقاط القافية ، وهي معركة خاسرة ، فقد ثبت أن الفصحى أطوع في التعبير من العاميات كذلك فنحن لسنا في حاجة إلى لغة دارجة ثالثة كحلقة وسطى بين العامية والفصحى وأخطر ما في هذا الاتجاه تبني اللهجات الدارجة والمحكية للمسرحيات والتمثيليات وما يسمى الادب الشعبي .

كذلك فإن الفجوة بين الفصحى واللهجة العامية ليست بهذه الصورة التي يحاول أعداء اللغة إظهارها بها وأن الخلاف بين عبارة الكتاب العلماء وبين عبارة العامة أمر مألوف في كل أمة وفي كل لغة حية .

(ثالثاً) الهجوم على الحروف العربية بينما تبين بشهادة المنصفين أن هذه الحروف هي أصلح حروف الأبجديات قاطبة لكتابة الألفاظ ومن أكثرها دقة في ضبط الأصوات ، وقد استطاعت أن تؤدي من أنواع الكتابة ما لم تستطع أي أبجدية أخرى أن تؤديه فقد استطاعت الحروف العربية أن تكتب لهذه اللغات جميعاً دون تعديل أو تغيير أو إضافة في أشكالها ولقد انخدع الذين دعوا إلى الكتابة العربية بالحروف اللاتينية بما حدث في تركيا غير مقدرين الفارق بين اللغتين وكذلك لم يلتفتوا إلى اختلاف العربية عن اللاتينية وما تفرعت إليه من لغات ، وقد فاتهم أن اللغة العربية تعبر عن فكرة وثقافة ممتدة لأمة واحدة في تاريخها البعيد إلى حاضرها المشرق ، ما تزال مطعمة بالحياة والقوة وأن تطورها وتفاعلها لم يتوقف وهي لغة أمة واحدة ارتبطت بالتاريخ والعواطف والفكر والقيم والمصير أوثق ارتباط وفوق ذلك فهي لغة القرآن أساس الحضارة والفكر والثقافة العربية الإسلامية أما اللغة اللاتينية فلم تكن لغة الغرب كله ولم تستطع التغلب على اليونانية فضلا عن أنها كانت لغة أرستقراطية لم تتغلغل في حياة العامة .

(رابعاً) محاولة تطبيق مناهج اللغات الأوربية على اللغة العربية ودراسة اللهجات والعامية ، ولما كان المنهج الوضعى الحديث يجعل أساسه فى دراسة اللغة هودراسة اللهجات والتركيز على الكلام المنطوق دون المكتوب فإن الهدف هنا هو صرف الأخطار عن علاقة اللغة بالدين فى سبيل إحياء القوميات الحـــديثة فى الغرب ، وإذا كان الأوربيون قد فرقوا بين اللغة العربية المستعملة فى النصوص المقدسة والطقوس وبين اللغة التى يتكلم بها الناس فى حياتهم اليومية ومصالحهم الخاصة فإن الفصحى ليست هى اللغة اللاهوتية أو لغة العبادة فحسب ولكنها تجمع بين الغرضين، كذلك فقد جمعت اللغة العربية بين الأسلوب الدينى والأساوب العلمى وعبارة لغة الدين عبارة كهنوتية لا تنطبق على العربية وهى مرتبطة بالمسيحية فى الغرب .

ومن هنا فإنه يلزم أن يكون لنا موقف إزاء نظريات علم الاصوات الحديث فلا نأخذها قضية مسلمة فإن العلوم الإنسانية الغربية الواحدة تختلف اختلافاً واسعاً عن مفهوم العلوم الإنسانية الإسلامى وقد درسنا هذا بإفاضة فى الملتقى الإسلامى بالجزائر فى الشهر الماضى ، كذلك فإن هناك اختلافا واسع من حيث المضمون والتاريخ والظروف بين اللغة العربية واللغات العربية وما ينطبق على هـــذه اللغة ليس بالضرورة صالح للتطبيق على العربية التى تميزت بارتباطها بالقرآن الكريم الذى حماها من عملية الانهيار والتى تتم فى الغرب كل ثلاثة قرون ونحن نطالب بنظرية خاصة لدراسة اللغة العربية من حيث اتصالها

بالقرآن وخلودها واستمرارها حتى الآن ونحن يجب أن نرفض تطبيق مناهج اللغات الأوربية على اللغة العربية لأسباب علمية بحتة، ويجب أن يكون واضحاً أن اللغة العربية هي مفتاح فهم الإسلام والإحاطة به وبدونها لا تتحقق معالمه ولا تحكى للناس حقائقه وتعاليمه، وهذا سر الحملة عليها وقد قبلت اليابان ببعض شروط المحتل الأمريكى بعد الهزيمة ما عدا شرطاً واحداً هو قبول إدخال بعض التعديلات على اللغة اليابانية حيث كان الأمريكيون يريدون أن ينتزعوا منها بعض مقوماتها .

. . .

ومن هنا فنحن مطالبون بقدر أكبر من الوعى واليقظة إزاء مؤامرة احتواء اللغة العربية وتفريغها من مقوماتها بعد مؤامرة حبسها عن النماء والانتشار فى العالم الإسلامى .

وأخطر ما ندعو إليه هو القدرة على التحرر من سيطرة اللغات الأجنبية على اللسان العربى وضرورة تعريب التعليم كنقطة انطلاق إلى الأصالة وإيماناً بأن لغة القرآن هى لغة الحياة وأنها ليست لغة أثرية بل لغة متجددة وقادرة على استيعاب متغيرات العصر وحقائقه، وقد ظل التعليم فى القصر العينى سبعين سنة باللغة العربية حتى احتلت مصر، وأمامنا تجربة كلية الطب فى دمشق .

(ثانياً) ضرورة تعلم اللغات الأجنبية فى إطار اللغة الأم حتى لا تعطى اللغة الجديدة ولاء معارضاً للولاء الأصيل فقد حرص النفوذ الأجنبى أن تنقل فكره عن طريق لغته وأن يتحقق لها ولاء فى نفوس وعقول أبناء الأمة الواقعة تحت سيطرته

كذلك فنحن مطالبون بأن نحمى لغتنا من اقتحام ألفاظ اللغات الأجنبية عليها فإن ذلك يجعلها مهلهلة خالية من جمال صنعتها الفريدة ونسيجها المنسجم ، فالإسراف فى استخدام الدخيل من اللغات الاخرى له محاذيره التى يعرفها شيوخ اللغة ، كذلك نحذر من خطر الدعوة إلى إسقاط حركات الإعراب .

كذلك فنحن لا نقبل الواقع التى تدنت له الفصحى اليوم عن طريق الصحافة والتلفزيون والمسرح ولكننا يجب أن نعمل على التسامى بلغة الحوار حتى يقترب دائماً من بيان القرآن لا ينفك عنه .

ومن الضرورى حماية (الجملة القرآنيـــة) التى دعى العلامة مصطفى صادق الرافعى إلى تجاوزها لينال الشهرة الضخمة والمكانة العليـا .

وإذا كان لنا أن نأخذ من الغرب فلنأخذ من الفرنسيين إن اللغة هى الجنسيـة .

وفى ألمانيا فإن اللغة هى مادة المواد والمادة العليا حيث يتصل بها كل الفكر، وما سمعنا فى الغرب من يقول قولة الظالمين إن اللغة مجرد أداة أو أنها أداة غير طيعة ولا صالحة يريدون محوها وهدم أصالتها الإسـلامية ، ولقد كان علىّ أن أتحدث عن عظمة اللغة العربية واتساعها وتعدد معانيها ، وقد أمكن حصر مائة ألف مادة من كلامها وأسرد على مسامعكم تقدير باحثين أجانب تختلف معهم فى كل شىء لهذه اللغة فضلا عن مئات المصطلحات العربية فى اللغات الأوربية، ولكنى ألتزم بموضوع المحاضرة وأرجو أن أكون قد وفقت إلى تجلية القضية .

واحذر من مراكز تعليم اللغة العربية فى جامعات فرنسا وبريطانيا وبرلين وغيرها ، فإن الذين ذهبوا إليها شهدوا بأنها تنفر أبناء المسلمين غير العرب من تعليم العربية وتردد قول المستشرقين والمبشرين فى اتهامها بالجمود والعقم وبأنها لغة لا تصلح للحياة إلا لمجتمع بدوى وأنها لا تساير الحياة الحضارية

• • •

والحق أن حرب اللغة العربية هى حرب للإسلام والقرآن .

لأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى احتفظ بلغته

الأصلية وحفظها من عوادى الفناء وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة فى العالم اليوم كما ماتت لغات حية كثيرة فى سالف العصور إلا العربية فستبقى بنجاة من الموت وستبقى حية فى كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التى تسرى على سائر لغات البشر ، ولا غرو فهى متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية، فالقرآن هو الحصن الحصين الذى تحيى به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ووسائطها الهدامة

هذا وبالله التوفيق ؟

تعقيب على التساؤلات الموجهة

علينا لكى تكون القضية واضحة من مختلف جوانبها أن نؤكد على الحقيقة التى تقول إن اللغة العربية هى لغة أمة وهى فى نفس الوقت لغة فكر وثقافة وعقيدة (لجميع المسلمين الذين يبلغ تعدادهم اليوم ألف مليون) ومن هنا فنحن العرب مطالبون بحماية هذا الوجود الضخم المتعاظم للغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم ولغة العقيدة والثقافة الإسلامية .

ولعل هذا هو ما كان واضحاً فى تقدير القوى المختلفة فى التعامل مع الفصحى ، ومن هنا جاء ذلك البحث عن المراجعات التى وقفتها اللغة العربية إزاء اللغات الأجنبية فقد كان من الأمور الطبيعية أن تسير اللغة العربية فى ركاب الإسلام أين ذهب فتكون لغة المسلمين فى كل مكان ، التى يستمدون منها مفاهيم عقيدتهم وثقافتهم وتعاملهم ، وهذا هو الأساس المكين للوحدة الإسلامية الجامعة

ولما كان الهدف هو إبقاء المسلمين فى قوالب الاقليميات والقوميات فقد وجهت إلى اللغة العربية المدفعية الثقيلة بهدف تحطيم حاجز الفصحى ، وإدخال العاميات واللغات الأجنبية ، ومن هنا ظهرت دعوات إحياء العامية أو ما يسمى اللغة الوسطى أو مشروع العربية الأساسية ، كل هذا كان يهدف إلى إيقاف نمو الفصحى وتوقفها

عن حركة الإسلام من ناحية وعلى إيجاد مسافة واسعة بين البيان العربي القرآني وبين الأسلوب الجاري على ألسنة الكتاب والصحف بهدف شق وحدة اللسان والكلمة في محاولة كشف عنها الكثيرون وهي إدخال العربية إلى المتحف كما أدخلت اللاتينية في الغرب وإقامة لغات إقليمية من خلال اللهجات كما فعلت أوربا .

ومن هنا يحمل هؤلاء الدعاة التي يصفون أنفسهم بالتجديد والتقدم مقولة باطلة هي القول بأن الامة العربية هي لغتنا ونحن أصحابها ولنا حق التصرف فيها ، وهو قول باطل بكل المقاييس وغير صحيح ومردود يرده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمي ويرده أن هذه اللغة أمانة لدينا للأمة الإسلامية كلها التي تملك فيها مثل ما نملك والتي لم تفوضنا في مثل هذا التصرف .

وربما يكون هذا صحيحاً بالنسبة للغات الاوربية ، أما العربية فإنه منذ أن نزل بها القرآن فقد أعطاها واقعاً مختلفاً ، إذ لم تصبح العربية لغة أمة هي العرب وحدهم وإنما هي لغة فكر وعقيدة ودين وثقافة .

ثانياً : حين يضعون تجربة اللغة اللاتينية بالنسبة للانجيل في أوربا كصورة نموذجية للمحاولة يجهلون مدى الفارق البعيد بين اللغتين وينسون أن الإنجيل لم ينزل باللغة اللاتينية أصلا وإنما ترجم إليها .

ومن هنا فإن إرتباط الفصحى بالقرآن هو وحده الذى حماها من أن تتحول لهجاتها إلى لغات مستقلة وسيظل هذا الإرتباط قائماً بين المسلمين وبين لغة الضاد الفصحى ، لغة القرآن ، قائماً إلى أن يرث الله تبارك وتعالى الأرض ومن عليها .

• • •

ومن هذه النقطة . نقطة علاقة القرآن باللغة العربية نرد تلك النظريات الوافدة التى تريد أن تحاكم اللغة العربية إليها ، للإختلاف العميق بين هذه اللغات التى وضع منهج علم اللغة فى ضوئها وقد وقف أعلام الفكر الإسلامى فى وجه هذه المحاولة وكشفوا مفارقاتها .

ويعنينى بالأكثر فى هذا المجال أن أركز على الموضوع الذى حددته هذه الندوة المباركة وهى محاولة اللغات الأجنبية فى الزحف الساحق ، تاركة الفصحى عاجزة عن إمتلاك إرادتها فى بلادها ، وقد حجبها النفوذ الأجنبى أكثر من ثلاثمائة عام عن النماء والامتداد فى محاولة خطيرة ترمى إلى أن تسيطر اللغات الأوربية على الثقافة العربية والإسلامية ، فى الوقت الذى تعرف فيه أن إقصاء اللغة هو قضاء على المفهوم الأصيل للفكر الإسلامى والثقافة العربية على أساس أن اللغة هى أحد وجهى الفكر بمعنى أن سوقنا إلى اللغات الأجنبية يعنى بالتبعية صهر المسلمين والعرب فى فكر الأمم التى تفرض علينا لغاتها .

وقد وقف الغزو الفكرى والتغريب فى وجه إمتداد اللغة العربية إلى كل مكان ذهب إليه الإسلام ، وجرت المحاولة فى عدة محاور :

أولا : تحويل أبجدية اللغات الإقليمية إلى اللاتينية وكانت تكتب أساساً بالحروف العربية ، كما حدث فى أندونيسيا وبعض بلاد إفريقيا وآسيا .

ثانياً : إعلاء شأن اللهجات العامية لحجب العربية الفصحى .

ثالثاً : التوسع فى فرض اللغات الأجنبية لغة المحتلين .

فالمعروف أن النفوذ الأجنبي يعزز تعلم اللغات الأوربية فى بلادنا بهدف أن ينتقل الفكر والذوق والوجدان مع اللغات الأجنبية فيغرب تماماً .

• • •

ولذلك فإننا نطالب بأمرين أساسيين :

(١) أن يكون هناك منهج لتعلم اللغات الأجنبية فى بلاد العربية والمسلمين قائم على أساس أن تكون هذه اللغات فى خدمة العربية الفصحى وأن تعيش فى ضوئها .

(٢) أن يكون هناك منهج للترجمة قائم على أن يقدم للمسلمين

والعرب كل ما من شأنه أن يحمى كيانهم الفكرى من التمزق أو الاحتواء وفى القارة الإفريقية وفى جنوب شرق آسيا مازال المسلمون يقاومون احتوائهم ويصرون على التمسك باللغة العربية ، لغة القرآن ويرسلون أبنائهم إلى المدارس القرآنية والأزهر وخلاوى القرآن وقد نشأت فى السنغال ونيجريا والنيجر (غانا ولاجوس وزاريا) أقسام كاملة لدراسة العربيه فى جامعاتها ، وهى فى حاجة إلى تمويل ومعونة ، ولذلك فنحن ندعو إلى التحفظ على منهج تعلم اللغات الأجنبية من أجل حماية الفصحى ، وأن تكون اللغة العربية وفكرها هو الأساس فى تكوين ثقافة المتعلمين فالأمم تفكر باللغة قبل أن تفكر بالفكر نفسه .

• • •

وما زلت أرى أن مناهج علم اللغة الحديث هى أكبر التحديات التى تواجه الدارسين العرب والمسلمين من حيث أن هذا المنهج يعارض مفاهيم الفكر الإسلامى وهو لم يجد فى اللغة العربية استجابة لأنه لم ينشأ فى رحابها وإنما نشأ فى رحاب اللغات التى انشقت عن اللغتين اليونانية واللاتينية والتى لم تكن فى الحقيقة إلا لهجات عامية حلت محل اللغة الأم ، وهو ما يملأ وجدان خصوم العربية والقرآن والإسلام بالظن أنه طريق سيؤدى إلى انحلال اللغة العربية إلى عاميات وبذلك يتحقق الهدف الخفى المستور وهو الحرب على القرآن الكريم

ومنهج علم اللغة الحديث يتركز فى المنهج الوصفى الذى يجعل أساس دراسة اللغة ودراسة اللهجات والتركيز على الكلام المنطوق دون المكتوب وصرف الأنظار عن علاقة اللغة بالدين فى سبيل إحياء القوميات الحديثة فى الغرب

ولا ريب أن هذا المنهج قد وضعته القوى التى عملت على تمزيق وحدة الغرب أساساً ، فلماذا نقبله ونحن دعاة وحدة عربية هى أساس لوحدة إسلامية كبرى لنا فيها حفاظ على عقيدتنا وتراثنا وقيمنا .

وقد أشار كثير من الباحثين الذين ناقشوا تفاصيل هذا المنهج الوافد إلى أخطاره ومحاذيره ومعارضته لمناهج اللغة العربية , التى تختلف أساساً عن اللغات الأوربية الحديثة تاريخاً ووجهاً وهدفاً .

وقد رأى الباحثون العرب والمسلمين فى هذه المناهج تحدياً حقيقياً للغة والتراث ولمستوى البيان القرآنى ، ووجدوها حلقة فى سلسلة الأخطار والتحديات التى رصدها النفوذ الأجنبى لمواجهة الإسلام ولغته وهى فى رأيهم مؤامرة لاتختلف عن الدعوة إلى العامية وإحلالها محل الفصحى أو مبدأ الحروف اللاتينية .

• • •

نحن طلاب وحدة عربية وإسلامية ، ولا ريب لمن هذه المحاذير ترمى أساساً إلى الحيلولة دون تحقيق هدفنا ، ولذلك فنحن نطالب بأن تكون علاقتنا باللغات الأجنبية علاقة إفادة من الأساليب والوسائل دون أن تحتوينا مذاهب الغرب أو تسيطر علينا .

هذا وبالله التوفيق ؟

رقم الإيداع ١٩٨٨/٥٨١٨

مطبعة دار البيان بمصر
ت/ ٩٢٨٦١٩